الفصل
7

تلويث أيادينا والتمسك بمعتقداتنا

جوليانا هاريس وكاتي فيدال Juliana Harris & Kati Vidal

هذه المدرسة الابتدائية المخصصة للمرحلة الثالثة لما قبل الحضانة والواقعة في المنطقة الشرقية الريفية من ولاية نورث كارولاينا. اشتركت هذه المدرسة في كل مبادرة للطفولة المبكرة قادتها الولاية على مدى السنوات العشرة الماضية، بما في ذلك برنامج العروض الإيضاحية لما قبل الروضة والمدارس الجاهزة والمدرسة الأولى، حازت المدرسة على جائزة اللقب في الولاية منذ عام 2009 حتى عام 2012 حين جرى معظم العمل في مبادرات الطفولة المبكرة. هناك مئة وسبعون طفلًا -تقريبًا- موزعون على ثمانية صفوف في روضة الأطفال، حيث يضم كل صف ما متوسطه ثلاثة وعشرين طالبًا، وفي كل غرفة طفلان إلى ثلاثة أطفال يتحدثون اللغة الإنكليزية لغة ثانية، كما يقدم لقرابة ثلاثة أرباع الأطفال غداء مجاني أو بأسعار مخفضة.

كان زمنًا ساحرًا في عالم روضة الأطفال حين ننظر إلى الخلف، ونرى أن كل شيء كان على ما يرام، كنا نعلم أن الكثير قد ألقي على كاهل أطفالنا، ومع ذلك فعلنا ما كنا نعتقد بأنه صحيح لأطفالنا، حيث وازنّا بين المتطلبات التعليمية وعالم اللعب عند الأطفال. ففي أي وقت من أوقات الدوام أمكننا رؤية الأطفال والمدرسات وهم داخلون وخارجون من الصفوف، ويتشاركون في التعلم بدهشة، مثل التشارك في أغنية عن الحيوانات كتب كلماتها الأطفال وأدوها، أو شجرة طويلة بنيت بالمكعبات، أو كتب كتبها الأطفال وزودوها بوسائل التوضيح، لقد ألهمنا تبادل الزيارات لغرف بعضنا بعضًا أفكارًا وأحاديث جديدة، أرشدت خطواتنا التالية في التخطيط لتجارب ذات معنى.

كنا فريقًا مكونًا من ثماني مدرسات، نحترم الفروق والخبرة الفريدة من نوعها لبعضنا بعضًا، فإذا احتجنا نسجًا لشيء أو حركات لأغنية فإن بيث ري هي خبيرتنا في ذلك، وإذا

احتجنا إلى منهجية عملية لحل مشكلة ايفيت جيفرز هي الشخص الذي نعوّل عليه في ذلك، كانت شيلي براون بارعة وحازمة حين كان الأمر يتطلب حل المشكلات، ونعتمد على تيري باركر في تحريكها للدمى وروح الدعابة والاستقصاءات في ميدان العلوم، جلبت بيفرلي فيلوز معها خبرة في التواصل مع المجتمع بعد تسعة وعشرين سنة قضتها في ذلك، أما جوليانا هاريس فقد جلبت معها القيادة والمعرفة الواسعة في ميدان تطور الطفل، بينما جلبت كل من كاتي فيدال وأليسيا سميث -وكلتاهما جديدتان على هذا الميدان- معهما وجهات نظر وأفكارًا جديدة. وبالرغم من خلافاتنا فقد كان لدينا شيئ واحد مشترك، هو الالتزام بالعمل بتعاون للحفاظ على ما كنا نعتقد أنه الأفضل لتعلم الأطفال الصغار.

الخروج خارج غرفة الصف

كانت أولويتنا البناء على اهتمامات الأطفال، وعلى ملاحظاتنا حول لعبهم، في تلك السنة بالذات كانت مدرستنا قد تلقت منحة لتزويد الأطفال بأنواع من الفواكه والخضار الطازجة، حين تذوق الأطفال الكثير من هذه الفواكه والخضار للمرة الأولى تراوحت ردود فعلهم من حب الفضول والدهشة إلى تمثيل دور (الثعالب) و(النعاج).

تشاركت جوليانا بقصة (خطف البذرة) في غرفة صفها، وفي لقاء صفي مبكر من ذلك اليوم قال أحد الأطفال بألم: «لقد أصبت بالجنون، أريد أن أذهب إلى الرمل غدًا»، وبعد الاستقصاء اكتشفت جوليانا أن ثلاثة أطفال كانوا قد وفروا بذورًا من برتقالاتهم، وزرعوها سرًّا في طاولة الرمل، تابعت جوليانا قولها ووصفت كيف قرر الأطفال أنه لا بد من حماية البذور، هنا نبشت البذور ووضعتها في كأس، في هذه اللحظة قاطعت كاتي الحديث موافقة، وقالت: «ذاك أمر مضحك جدًّا، بعض الأولاد حاولوا الاحتفاظ ببذور الفاصولياء الخضراء من غداء البارحة، لذلك وجد طعام طري في جيوبهم»، قالت أليسيا: «البارحة حفرت بعض الفتيات حفرًا في أرض الملعب، ولن تصدقوا ماذا أخرجن من جيوبهن»، كانت الفتيات قد احتفظن ببذور التفاح، وحاولن أن يزرعنها في منطقة القاذورات في الملعب، تنهدت تيري وقالت: «أتمنى أن نحصل على تمويل لحديقة أو صندوق رمل». لقد كان الأطفال يظهرون اهتمامًا بالبذور ونمو النباتات، ما يمكن أن يؤدي إلى مزيد من الأنشطة.

كانت جوليانا جزءًا من برنامج الإيضاح لروضة الأطفال لما قبل المدرسة في نورث كارولاينا، أكد هذا البرنامج على التعلم المستند على المشروعات، بما في ذلك تطوير بيئات التعلم خارج غرف الصف. وضعنا هذه القصص نصب أعيننا وبذلك تحولت النقاشات إلى أن نستثمر الموارد من برنامج الإيضاح لدعم حب الفضول عند الأطفال حول البذور والنباتات.

قررنا أن نخطط لمشروع على مدى سنة بكاملها يركز على الحدائق، كنت أنوي إدخال بناء مساكب حديقة مرفوعة لكل صف من صفوف روضة الأطفال، ستعزز هذه الحدائق أرض اللعب لدينا، وبالوقت نفسه ستوفر تجارب تعلم خارج غرف الصف. إضافة إلى أنه سيتاح للأطفال فرص التعلم عن التغير الذي يطرأ مع مرور الزمن وتأثير الجو على البيئة والطبيعة، فالأمران كلاهما يعدان من معاييرنا في منهاج العلوم.

ستعزز هذه الأنشطة التي تجري خارج الصف أيضًا مهارات الملاحظة لدى الأطفال، وتنمي اللغة الشفوية والمفردات حين يتحدث الأطفال عن الموضوعات التي تهمهم، وفي أثناء اللقاءات اللاحقة طورنا شبكة منهاج تظهر كيفية دمج مناطق المحتوى المختلفة، وهذا ما يسمح للأطفال بوجود وقت للتدرب على المهارات الخاصة بالمحتوى بطريقة تتعلق بالعالم الحقيقي.

ولنحصل على فهم أفضل للخلفية المعرفية للأطفال فقد بدأنا بنقاشات حول الحدائق، وسجلنا ملاحظات حول ما يعرفه الأطفال، وما الموضوعات التي تثير حب الفضول عندهم. مثلًا؛ قال أحد الأطفال: «لجدتي حديقة تزرع فيها الفلفل الحار»، وقال طفل آخر: «البندورة لا تنمو في الحديقة، وباستطاعتك أن تحصل عليها من محل البقالة».

أخذنا الأطفال إلى مكتبة المدرسة لنجد كتبًا عن الحدائق واستعملناها في البحث، استمتع الأطفال خصوصًا بكتاب **دائرة اليقطين: قصة حديقة Pumpkin Circle: The Story of a Garden** من تأليف جورج ليفنسون George Levenson وشمويل تيلر Shimuel Thaler, 2002 وقد رغبوا في سماعه مرارًا وتكرارًا، غيرنا مراكز غرفة الصف للبدء باللعب المتمركز حول البستنة، أضيفت التربة وأواني صغيرة إلى طاولات الرمل، ووضعت صور حدائق في كل

أرجاء غرفة الصف لإطلاق المحادثة والكتابة، كما استخدمنا صورًا فوتوغرافية لحدائق، إضافة إلى الملصقات التي تعرف بأجزاء النباتات ودورة حياة البذرة، ووضعت كتب عن الحدائق -وهي كتب تخيلية وغير تخيلية- في المراكز في كل أرجاء الغرف الصفية، وصنع الأطفال صورًا جدارية، مستخدمين ورق البناء لصنع النباتات التي يتوقعون أن يجدوها في الحدائق. كان على الأطفال أن يحددوا حجم النبتة التي يضعونها وشكلها وألوانها، كما كان عليهم أن يتصوروا الشكل حين يقصون الأجزاء ويربطونها مع بعضها بعضًا. وحين كان الأطفال يعملون تسمع أصواتهم وهم يتشاركون في فهمهم الحالي، كانوا يقولون: «عليك أن تجعل تلك الورقة تشبه المثلث. لقد حصلت على شكل مستطيل». بدأت المدرسات يدركن المفاهيم غير الصحيحة عند الأطفال حين صنعوا (نباتات الفاصولياء الخضراء) لصور الحدائق الجدارية. بعد ذلك خططنا بصورة هادفة للتشارك في القصص المتعلقة بالحدائق، مثل قصة (جاك وساق الفاصولياء)، إضافة إلى كتب غير تخيلية للبدء في معالجة مفاهيم الأطفال غير الصحيحة.

كانت مديرتنا تشجعنا دائمًا على المغامرة في التدريس، وعلى التطور كمدرسات، وقد دفعتنا هذه الفرصة المتاحة إلى توسيع تدريسنا إلى خارج غرفة الصف، وهذا ما مثل تجربة وخبرة جديدتين للمعلِّمين والأطفال على حد سواء، لقد دعمت مديرتنا هذه المحاولة بالرغم من معرفتها بأن سلطة المقاطعة تبتعد عن التعلم التجريبي النشط.

المزيد هو الأفضل، أليس كذلك؟

كانت وكالة الرقابة الجديدة للولاية تمحص بممارساتنا التدريسية، كنا مُراقبات ومنتقدات على ما نفعله وما لا نفعله، وكما يحدث في التعليم -غالبًا- فقد طُلب إلينا أن نؤكد على عنصر تدريسيّ على حساب عناصر أخرى من باب التوازن، أصبحت القراءة الموجهة -وهي من قبل جزء من يومنا- الطريقة الوحيدة لتحسين قراءة الأطفال، وكانت الفلسفة المتبعة (المزيد هو الأفضل).

خصصت لنا ساعات للتدرب على تنفيذ القراءة الموجهة، وسلمت إلينا طبعات من خطة الدرس، كان من المتوقع منا أن ننفذ خمس جلسات مكونة من قصاصات للتدرب على

مهارتي القراءة والكتابة بصورة انفرادية، مدة كل جلسة خمس عشرة دقيقة كل يوم، وذلك لنلتزم برنامج القراءة الموجهة، ويحقق الأطفال تقدمًا كافيًا حسب معايير القراءة التي حددتها الولاية. لم يؤكَّد على التعلم الفعلي للأطفال في أثناء هذه الأنشطة لتعلم القراءة والكتابة، مثلما لم تكن الأنشطة مرتبطة باهتمامات الطلاب ومشروعات الصف، ولم يؤخذ في حسبان سلطات المقاطعة أن التدريس الفاعل للقراءة سبق وأن دُمج طوال اليوم في غرفنا الصفية، في أثناء وقت المجموعة Circle time ومحطات تعلم القراءة والكتابة، ومراكز اللعب، وحتى في أثناء المدد الانتقالية.

تسببت المدد الانتقالية العديدة بين الأنشطة التي يمر بها الأطفال، إضافة إلى عدد الدروس المضغوطة كل يوم في خسر ان الأطفال الوقت الثمين اللازم لأنشطة تعلم القراءة والكتابة الحقيقية؛ فمثلًا، لم يكن لدى الأطفال الوقت الكافي لتطوير سناريوهات اللعب المسرحي، أوصنع مطاعم وقوائم طعام تخيلية وانتظار كتابات تبين هويتها، أوصنع بطاقات أمنيات للأصدقاء أو للدلالة عليها، هذا النوع من التعلم اللاهي يستغرق وقتًا. لخصت المرشدة ليليان كاتس Lilian Katz, 2014 أفكارنا حول المنهجية التي تقرها السلطات الرسمية حين قالت: «هل إجبار المعلمين على العمل في مدد من خمس عشر دقيقة يغطي الكثير من التوقعات، وهم باستمرار يوقفون الأطفال ويطلقونهم عند كل مجموعة من المهمات؟ ربما نعلم الأطفال أن ما يتعلمونه ليس له أهمية حقًّا؟» (P. xii). لقد كان آخر شيء نتوقعه أن يخرج الأطفال من غرفنا الصفية وهم يشعرون بأن التعلم لا يعني لهم الكثير.

كان فريق روضتنا يتعاون من قبل مع برامج كثيرة ترتكز على الطالب، ونتيجة لذلك بدأنا نفكر في ممارساتنا التعليمية وأنواع التجارب التي نريد أن يكتسبها الأطفال، انخرطنا في مشروع مدة ثلاث سنوات لتطوير الهيئة التدريسية مع معهد تطوير الطفل، بإدارة فرانك بورتر غراهام Frank Porter Graham في جامعة نورث كارولاينا في تشابل هل Chapel Hill، ويسمى المدرسة الأولى الممولة من قبل مؤسسة كيلوغي W.K. Kellogy، ويهدف إلى تحسين التجارب المدرسية للأطفال الأمريكيين من أصل إفريقي، والأطفال من أمريكا اللاتينية، وأطفال العائلات متدنية الدخل. ساعدنا هذا المشروع على التفكير في مقدار الوقت الذي

يقضيه الأطفال في المدد الانتقالية وتعليم المجموعة بكاملها، تفحصنا تفاعلاتنا مع الطلاب ووجدنا طرقًا جديدة لإشراكهم في التعلم، مثل توسيع المفردات بالطلب إليهم المشي إلى الكافتيريا زوجين زوجين بدل المشي انفراديًّا، أو النظر إلى الأشكال الهندسية في طريقهم إلى وجهتهم. لقد ساعدنا العمل مع المدرسة الأولى على فهم أهمية المنهجية المرتكزة إلى الطالب وتوضيحها، دمجنا المحتوى على مدى اليوم، وانتبهنا إلى كل ميدان تطويري، وانتقدنا المنهجية التعليمية التي تتبناها السلطات الرسمية للمقاطعة بصورة أكبر، وغدونا أكثر تصميمًا على تطوير منهاج مبني على الاهتمامات الحالية للأطفال في البذور والنباتات.

الحفر

قرر فريقنا استخدام نشاط تنسيق الحديقة بطريقة إبداعية، لإحداث إحساس بالانتماء إلى المجتمع لدى الصفوف والعائلات، دعونا العائلات للانضمام إلى هذا النشاط، وخططنا أنشطة اليوم، وتشاركنا برؤيتنا مع أفراد العائلات بالرسائل الإخبارية، بحثنا عن خبرة في البستنة بين أفراد العائلات وذلك بإجراء مسح للاهتمامات،فانضمت العائلات إلى نشاط تنسيق الحديقة بالمساعدة في نقل أكياس من التربة وتقديم النباتات الخريفية.

بدأ الصباح في أرض الملعب حيث كانت الصفوف الثانية تستمع إلى جوليانا وهي تقرأ كتاب **حديقة مجتمعنا Our Community Garden** لباربرا بولاك Barbara Pollak, 2004. أظهر الكتاب كيفية بناء حديقة في وسط مدينة حافلة بالأعمال، كما أظهر أدوات البستنة، وقدم أمثلة عن الأطعمة التي استعملت أنواعًا من الخضار، وهي أطعمة أعدتها عائلات جاءت من أنحاء مختلفة من العالم، كان هذا الأمر ينطوي على قيمة عالية؛ ففي مدرستنا أطفال متنوعو الأصل. أقمنا أربع محطات مبنية على تعلم القراءة والكتابة، ومتصلة بالحدائق التي استمع فيها الأطفال إلى كتب لها صلة بعناصر الحديقة، ومن ثم أتممنا الاستقصاءات المتعلقة بالكتب. في إحدى المحطات استمع الأطفال لقصة بعنوان **القاذورات: مجرفة على التربة Dirt: The Scoop on Soil** من تأليف نتالي روزينسكي وشيري

بوفد، Natalie Rosinsky and Sheree Bovd, 2002 واستخدموا عدسات مكبرة لمقارنة تربة أواني المزروعات في الحديقة بالغضار الصخري الموجود في المنطقة خلف صفنا.

تساءل الأطفال؛ كيف تنمو النباتات في الغضار الصخري القاسي؟ هي تنمو فيه فعليًا، وكان ذلك دليلًا على أن الأمر ممكن، تابعوا مناقشتهم حول صلاحية زراعة الورود والخضار في تلك المنطقة أم لا. خرج أحد الأطفال بفرضية تقول بأنه لا يمكن للورود أن تنمو هناك، بسبب وجود الكثير من الأعشاب الضارة، وليس هناك قدر كافٍ من أشعة الشمس.

في مدة متأخرة من ذلك اليوم عاد كل صف ليغطي مساكب الحديقة بالجرائد، ويضيف تربة لملء تلك المساكب، غرس الأطفال أولى النباتات التي ستقطف قبل الربيع، وهي خضار تنمو في الطقس البارد، مثل البروكولي، والملفوف. أضافت بعض الصفوف زهرة الثالوث، في حين أن صفوفًا أخرى زرعت بصلات النباتات لتنضج في الربيع، لقد كان يومًا مليئًا بالتجارب والخيرات الجديدة، قام الأطفال أيضًا بشمّ تربة أواني المزروعات، وكانوا مندهشين أول مرة حين علموا أن الطعام الذي نتناوله يأتي من النباتات التي يزرعها الناس. (انظر الشكل 7.1).

في الأسابيع التي تلت وضع الأطفال فزاعات لحدائقنا، واستمرت العائلات في التبرع بالنباتات والمواد، في أثناء الاستراحة كان الطلاب -أحيانًا- يجلسون إلى جانب المساكب ودفاتر يومياتهم بأيديهم، يسجلون ملاحظات عن حفر الحشرات في أوراق الملفوف، وكما توقعنا بدأ الأطفال يقضون وقتًا أكبر في الملعب وهم يكتشفون حدائق صف آخر، ويتشاركون في الملاحظات، ويطرحون الأسئلة. وفي الغرف الصفية قام الأطفال بصناعة شاخصات للحديقة تقول: «الحشرات تتفضل، و الخنافس تخرج».

كان أحد أهداف المشروع إدخال إحساس بالمسؤولية التشاركية تجاه الحدائق،كانت أربعة من الغرف الصفية تفتح على الملعب، وقد وفرت النوافذ الكبيرة وسيلة للأطفال كي يراقبوا الحال. تشاركت الصفوف من صف ما قبل الحضانة إلى المرحلة الأولى في استخدام الملعب، وبالرغم من حدوث نقاشات حول مشروع الحديقة مع المستويات الأخرى للمرحلة، إلا أن أطفال المرحلة الأولى (الذين كان عندهم حب فضول بشأن المساكب) لم

يشعروا بإحساس الملكية والمسؤولية عن سلامة النباتات خلال الأسابيع التي تلت زراعتنا للحديقة، لقد بدأ أطفال الروضة يلاحظون أن الأطفال يدخلون المساكب، وأن الكرات كانت تهبط على النباتات، ناقشت مدرسات الروضة هذا الأمر على أنه مشكلة محتملة، لكنها كانت فرصة للتعلم في الموقف المناسب.

(**الشكل 7.1**): يعمل الأطفال سويًّا لتهيئة حديقة صفهم.

بدأ القلق يستبد بالطلاب، أصبح أطفال الروضة تواقين إلى أن يخرجوا، ويبعدوا الأطفال الآخرين الذين لا يبدون احترامًا للنباتات، ناقشت المدرسات كيفية استثمار قلق الأطفال لدعم تطورهم الاجتماعي، فتقرر عقد اجتماعات للاستماع إلى هموم الأطفال، وسماع أفكارهم حول ما يتعيَّن فعله عند رؤيتهم الآخرين يبدون عدم احترام للحدائق. تدرب الأطفال على شرح سبب أهمية لعب الكرة في منطقة أخرى من الملعب، وكذلك سبب أهمية عدم المشي في المساكب، ناقشنا نوع الأصوات والنبرات التي يمكن أن تساعد الأطفال الآخرين على تفهم قلقنا، بشرط ألا تؤذي مشاعرهم، بدأ الأطفال بتنفيذ أفكارهم حول حماية الحدائق. لقد اكتسبوا الثقة بالنفس حين بدؤوا يشرحون لأطفال المرحلة الأولى الهدف من الحدائق، وبينوا لهم أين يلعبون كي تبقى الحدائق آمنة.

في إحدى مدد ما بعد الظهر لاحظت أمبر طفلين من المرحلة الأولى يقطعان البروكلي من حديقة صف كيت، وبعد استنفارها للصف ومناقشة المشكلة مع مدرساتها وأقرانها، خرجت مع صديقة لها وذهبت إلى الحديقة، وقالت لأطفال المرحلة

الأولى بأدب: «من فضلكم أقلعوا عن قطف ثمار البروكلي الخاصة بنا، لقد قالت لنا مدرستنا أن باستطاعتنا تناولها وجبة غداء حين تكون ناضجة. ستعطيكم بعضًا منها إذا لم تخربوها»، استجاب الأطفال بإيجابية، وأصبح الصف متمكنًا بفضل إصرار أمبر.

كانت إحدى نتائج تعاون فريقنا بشأن مشروع الحديقة -عمومًا- المزيد من التعاون. لقد تشاركنا في الأفكار والمواد بصورة منظمة أكثر، ولاحظنا النتيجة، وقدرناها تقديرًا كبيرًا.

موسم تغيير

كان شهر كانون الأول في تلك السنة نقطة تحول بالنسبة إلى مدرستنا مع تقاعد مديرنا، الذي سرّب التعليمات الرسمية لسلطات المقاطعة في نقاط صغيرة، ليكون تأثيرها على استقلالنا الذاتي محدودًا جدًّا. أما الآن فقد وجدنا أنفسنا مجبرين على استخدام المعطيات للدفاع عن ممارساتنا بدلًا من استخدامها لدعم تطورنا المهني. امتثلت مديرتنا الجديدة التي كانت لا تمتلك أية خلفية عن الطفولة المبكرة للتعليمات الرسمية لمكتبنا المركزي، وطبقتها دون أن تعدلها لتناسب أفضل الخيارات، ألغيت مدة الاستراحة في الأيام التي يتعلم فيها الأطفال الجمباز، بذريعة أن الحصتين لهما الهدف نفسه، كما منع كل صف من الرحلات الميدانية الداعمة لمنهاجنا، إضافة إلى ذلك حرمت المدرسات المبتدئات من فرص زيارة الغرف الدراسية التي تقدم دروسًا إيضاحية لتعزيز نموهن المهني. إذًا كان هناك صدام في الفلسفات، وكان من مهمتنا أن ندعو مديرتنا الجديدة إلى عالم روضة الأطفال عندنا لتتفهم المنهجية المرتكزة على الطالب، وتوائمها مع أهداف السلطات الرسمية للمقاطعة.

فكرنا بعمق في طريقة التعامل مع هذه التعليمات الرسمية، بينما ندرّس أطفالنا في الروضة بطرق تطورية مناسبة، كان علينا إظهار أن التعلم يتم في صفوفنا، واستعملنا لغة برامج القراءة المصمم وفق التعليمات الرسمية، اختار الأطفال أنشطة من قائمة الأنشطة المبنية على تعلم القراءة والكتابة، وتأكدنا بأن الأنشطة التي تحتوي على مواد مدمجة

مرتبطة بعمل المشروع محط اهتمام الأطفال، فمثلًا، في مدة متأخرة من الشتاء ذهب الأطفال الذين اختاروا العمل على الكتابة إلى مركز العلوم، ولاحظوا في الحديقة الخضار التي تنمو في الطقس البارد، وأنتجوا رسمًا للخضار، وكتبوا لوحات تعريفية لأجزائها المختلفة، وناقشوا التغيرات التي طرأت على النبتة من فصل الخريف حتى فصل الشتاء.

تشاركنا مع المديرة بمصادر مهنية مثل (دليل نورث كارولاينا للسنوات المبكرة) the North Carolina Guide for the Early Years الصادر عن قسم التعليم العام في نورث كارولاينا (2009) كي تتفهم قراراتنا بشأن المنهاج، دعونا المديرة ومسؤولي المكتب المركزي لزيارة غرفة الدروس الإيضاحية لمدرساتنا، وهي زيارة عمل على تيسيرها هيئة التدريس في المدرسة الأولى. وبالرغم من الجهود التي بذلناها لم نشعر بتحقيق ما نريد. هنا قررنا أن نظهر للمديرة قوة التجربة في الروضة، وذلك بأن طلبنا إليها الانضمام إلينا في شهر نيسان للاحتفال بيوم الأرض، الذي يتوج مشروع الحديقة والذي استغرق سنة بكاملها.

ممارسة الطفولة المبكرة ليوم الأرض عمليًّا

في تلك السنة أنجزنا أعمالًا كثيرة جديدة، فقد كانت أول مرة يتعيَّن علينا أن نعمل سويًّا كي نبرز ما تعلمه أطفالنا وكيف تعلموه، وهي المرة الأولى التي تعاونا فيها في مشروع يتعلق بالمنهاج استمر عامًا كاملًا. كانت خبرة المدرسات بالحدائق تتراوح من عدم الخبرة فعليًّا إلى سنوات من نشاط البستنة الناجح، وأدركت المدرسات ذوات الخبرة في البستنة أن الفرص التعليمية ليست للأطفال فحسب، بل للمدرسات أيضًا، وإلى حد ما انطبق الأمر على مديرتنا التي لم تكن لديها خبرة في المنهجية المرتكزة على الطالب، كان علينا أن نغمسها في عاطفتنا وحرفيتنا لتتفهم قوة هذه الفلسفة. دعوناها لتنضم إلى صفوفنا في يوم الأرض وتستمع إلى قصة (جورج الفضولي يغرس شجرة) Curious George Plants a Tree Rey, 2010 على أمل أن يلهمها ذلك المشاركة في الأنشطة طوال اليوم.

خططنا بصورة إستراتيجيّة لإقامة عرض في يوم الأرض، يبدأ من ممر القاعة إلى أمام رواق الانتظار،حيث ستتشارك صفوفنا بتقديم دليل على تعلمهم، خرج الأطفال أرتالًا

من صفوفهم وهم يهتفون: «أهلًا بيوم الأرض» رافعين مشروعات يوم الأرض التي صنعوها، كانت إثارة الأطفال معدية، فقد أثاروا حب الفضول في الآخرين الموجودين في البناء، بما فيهم مديرتنا التي حدقت من مكتبها لترى سبب كل هذا الاهتياج.

حين استقر الصف في رواق الانتظار قدم الأطفال من كل صف راياتهم، قام أحد الأطفال بغناء أغنية عن العناية بالنباتات والأرض، في حين كان صف آخر قد صنع لافتات حول حماية الأشجار، وأتت العديد من الصفوف برسومات أطفال عن الطرق التي تكون فيها الحدائق نافعة للأرض.

في نهاية هذه المراسم انتقلت الصفوف إلى أرض الملعب، حيث كان يعرض الرسم البياني لما جمع من علب، فقد قام كل صف بجمع علب لتدويرها، وجمع المال لشراء شجرة ظليلة لملعبنا ونباتات لحدائقنا، بعد سماع عدد العلب التي ساهم فيها كل صف أزحنا الستار عن الشجرة، ستوفر هذه الشجرة الظل والكثير من الفرص التعليمية، واحتفالًا بالجهود التي بذلناها ورمزًا للوعد بالعناية بالشجرة شكل الأطفال والمدرسات وأفراد العائلات دائرة كبيرة، وشبكوا أيديهم ببعضها بعضًا، وغنوا أغنية (احتفلوا بالعالم) المأخوذة من فيلم The Lorax. كنا دائمًا نستعمل الموسيقا لمساعدة الأطفال في الانخراط عاطفيًا في تعلمهم، كان الأولاد يعرفون الكلمات والحركات، وكان المشهد مؤثرًا على نحو لا يصدق عند سماعهم وهم يغنون «كل ما عليك فعله... كل ما عليك فعله... هو أن تزرع... ازرع» راقبت مديرتنا المشهد من نافذة مكتبها بنظرة من الذهول لوحدة الأطفال والكبار وطاقتهم.

بعد الأغنية كان لدى كل صف الفرصة للنظر عن كثب إلى الشجرة، سأل أحد الأطفال قائلًا: «ما هذه الكرات الخضراء الصغيرة الموجودة تحت ورقة الشجر هذه؟»، وكما توقعنا فقد علّم مشروع الحديقة الأطفال أن يكونوا ملاحظين حاذقين، كما أن الشجرة قدمت وسيلة أخرى للاكتشاف. ولأن المديرة كانت مستمرة في التفرج على ما يجري فقد كان واضحًا أن التعلم يحدث، كان الأطفال ينتظرون دورهم بفارغ الصبر ليقتربوا أكثر وبأيديهم العدسات المكبرة، وناقشوا ما الذي يمكن أن ينبثق من هذه الكرات الصغيرة، رجع الأطفال إلى العديد من الكتب التي كتبها ايرك كارل Eric Carle والتي كانت تقرأ طول العام، لأنها

كانت تتحدث عن المخلوقات التي يمكن أن تعيش هناك، لقد شعرنا بأن المديرة كانت ترى قوة التعلم المرتكز على الطالب.

في محطات يوم الأرض خارج الغرف الصفية فتش الأطفال عن الديدان في حفرها، ولاحظوا حركاتها، واستكشفوا أجزاءً من البذور، وغرسوا البذور في أوانٍ صغيرة ليأخذوها إلى البيت، عمل الأطفال على اللوحات الجدارية لحديقة صفهم، ورسموا صخور الحديقة ليضيفوا لمسة شخصية إلى حديقتهم في الوقت الذي يتعلمون فيه أهمية الصخور للمخلوقات ونمو النبتة. ولأننا كنا نرغب في دمج معايير القراءة والكتابة فقد أكدنا على أن كل محطة تعكس صلة بقطعة من أدب الأطفال، مثل **الديدان الرائعة Wonderful Worms** من تأليف ليندا غلاسر Linda Glaser, 1994. وكما أملنا فقد استولى حب الفضول على كيان مديرتنا التي تجولت في غرفنا الصفية بينما كان الأطفال يعملون في محطاتهم، سألت المديرة طفلة ما الذي كانت تتعلمه. أجابت الطفلة قائلة: «لا تعرفين أي يوم هذا؟ إنه يوم الأرض، أنا وجدتي جلبنا اليقطين لنزرعه في حديقتنا». لقد كان الأمر مقنعًا ومثبتًا لأن يرى المرء الأطفال وهم يعبرون عن فهمهم، ويتعلمون بمثل هذا الفرح والقناعة. منذ تلك اللحظة لم نحاسب عن الوقت الذي يقضيه الأطفال خارج غرفهم الصفية.

إظهار تعلم الأطفال

لقد أحدثنا انطباعًا جيدًا لدى مديرتنا في ذلك اليوم، ونعلم أن هذا كان مجرد بداية. فقررنا أن نعرض الدليل على تعلم الأطفال في ممر القاعة وهم يركزون على التطور الاجتماعي والكتابة والقراءة والرياضيات والعلوم، تضمن كل عرض عينات من العمل، وصورًا فوتوغرافية أضيفت الكتابات في أسفلها، وقصاصات من البحث، واقتباسات تعليمية، قال مستمعو المدرسة الأولى الزائرون بأن العرض يقدم أمثلة قوية على تأييد تعلم الأطفال، زار الآباء الغرف الصفية لبضع دقائق في المدد الصباحية حين كانوا يرافقون أطفالهم إلى الصف للاطلاع على هذه التجارب. علق هؤلاء الآباء معبرين عن حبهم لأن يروا صور أطفالهم وهم يعملون.

بالرغم من وجود أسئلة حول صحة التقييمات المعيارية ومعناها فقد كنا مسرورين بتحقيق أطفالنا أعظم المكاسب في ميدان القراءة أكثر من كل رياض الأطفال في المقاطعة، لم نخضع للطرق التقليدية المفروضة علينا في التدريس، وجدنا طرقًا بالعمل سويًّا لنبقى صادقين مع فهمنا لكيفية تعلم الأطفال الصغار، لقد قدمنا تجارب ذات معنى أدت وفق تقييمات الولاية إلى نمو أكاديميّ مهم.

حين نتأمل وقتنا سويًّا، فإننا ندرك أن التغيير يأخذ وقتًا، تعد محاولة إقناع شخص ما قوي ومتشبث بمثل مختلفة مهمة مستمرة ومثيرة للتحدي، لقد تعلمنا الكثير من الدروس في أثناء مسيرتنا:

- الوحدة قوة. لم نستطع أن نحدث التغييرات التي أحدثناها لو لم نعمل سويًّا في تخطيط تعلم الأطفال، ولو لم ندعم بعضنا بعضًا في تحقيق أهدافنا.
- لا يأتي المديرون ومعهم معرفة بتطور الطفولة المبكرة وممارساتها، فالمدرسون يمكن أن يلعبوا دورًا أساسيًّا في تثقيف المديرين ومناصرة الأطفال الصغار. في البدء ظننا أن إخبار المديرة عن أهدافنا وممارساتنا وتقديم البحث ذي الصلة سيكون كافيًا، لقد كنا على خطأ، فقد كان من الضروريّ زيادة المحاولات في إقناعها بجدوى عملنا، وما أحدث الفرق هو الانخراط في تجارب مباشرة مع حوار مستمر.
- إن دعم الآباء أمر حاسم في نجاح المشروع، لأن الآباء يمكن أن يكونوا مناصرين أقوياء للمعلِّمين. التقينا بالآباء الجدد قبل بدء العام الدراسي، وفي أثناء السنة تشاركنا في فلسفتنا، وربطناها بتجارب الأطفال الصيفية وإنجازاتهم. ونتيجة لذلك، تفهم الآباء منهجيتنا واحترموها ودعموها.

كانت تلك السنة واحدة من أكثر السنوات إرهاقًا في مسيرتنا التدريسية، فقد وجهت كل جهودنا لضمان أن يبقى التعلم التجريبي والواقعي أمرًا مركزيًّا في غرفنا الصفية. لقد تعلمنا إثبات أن الأطفال يستطيعون اكتساب المعرفة، والوفاء بمتطلبات المعايير بطرق ملائمة من الناحية التطويرية، لقد قلّبنا ما كنا نعرفه من قبل، ووسعنا فهمنا لكيفية استعمال البحث لدعم تدريسنا الجيد. أحيانًا بدت أفكارنا المثالية وكأنها يمكن أن تحيا.

يلخص تجربتنا قول مارغريت ميد Maragret Meed: «لا تشك أبدًا في أن مجموعة صغيرة من المواطنين المفكرين الملتزمين تستطيع أن تغير العالم، في حقيقة الأمر إنه الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحدث فعلًا» Lutkehaus, 2008. P. 261. كانت تلك السنة صعبة، ولكن تطورنا أفرادًا ومجموعة حين تعلمنا عن إحداث التغيير.

تعليقات المحررين

تُبرز قصة جوليانا وكاتي الدور المحوري الذي يلعبه مديرو المدارس في خلق بيئات مؤسساتية، يستطيع المدرسون عن طريقها أن يؤدوا أفضل ما لديهم من عمل. في هذه المدرسة نجد أن دعم المديرة -إضافة إلى دعم المنظمات من خارج المدرسة- يسمح لفريق الروضة بالتعاون، حيث قام هذا الفريق بتخطيط مشروع -على مدى عام- بكامله يركز على النباتات والنمو، يمكن أن تضر المديرة الجديدة التي لا ترى قيمة منهجية متكاملة بصورة جيدة بالتزام الفريق بمبادئ الطفولة المبكرة.

إن ما يساعد المدرسات هو احترام بعضهن بعضًا، وقدرتهن على التعاون، وعمق معتقداتهن وقيمهن، إنهن يرين أن لا حدود للحدائق في إمكانية تعليم الأطفال، فهي تعطي المعلمات (حيزًا مرنًا) Powers, 2014, p. 146 لافتتاح منهاج. تذعن المدرسات للغة التعليمات الرسمية لسلطات المقاطعة حين يواجهن طرائق مفروضة، إضافة إلى ذلك تجعل المدرسات تعلم الأطفال تعلمًا عامًّا، فهن يعرضن عمل الأطفال في ممرات القاعة، إنهن يخططن للاحتفالات التي تجري في رواق الاستقبال وباحة المدرسة. إن للأنشطة الإيضاحية للتعلم تأثيرات قوية على الأطفال وعلى الآخرين في المدرسة، وتظهر حين يتكلم الأطفال بصوتٍ عالٍ ويظهرون عملهم ويغنون.